العقل... جرثومة الحروب!..

في منتصف القرن الثامن عشر، ظهر في فرنسا فلاسفة نادوا بالإصلاح والتحرير من قيود العهد القديم ومظالم القرون الوسطى. وقاموا يبثون الدعوة إلى العقل المفكر المبدع، طالبين من الطغاة المستبدين ان يفسحوا مجالاً للعقل البشري ليعبر عن نفسه في حرية تامة، وداعين الشعب الغارق في بحر الأوهام والخرافات والتقاليد البالية أن يحكم عقله في المسائل وألا يخضع إلا لما يخضع له العقل، وألا يؤمن إلا بما يؤمن به العقل. ومنهم فولتير الذي دعا الناس إلى استعمال عقولهم في كل شيء لأنه وحده يحررهم من القيود الثقيلة التي كانوا يرزحون تحت عبئها. وقد ذهب أحدهم - (هيبر) - وهو أحد قواد الثورة إلى المبالغة في تقديس العقل، واقترح أن يعبد العقل بدلاً من الله فأقام له خدمة في كنيسة نوتردام الباريسية حيث مثلت العقل إحدى الجميلات وقد احتلت مكانها على المذبح! غير أن واحداً من أولئك الفلاسفة، وأعني به جان جاك روسو، غاير آراءهم في تقديس العقل وأعلن ان مشكلة الإنسانية الكبرى، هي انها تفكر كثيراً وأنه أن نثقف بإحساساتنا وشعورنا وقلوبنا.

أجد في كلام روسو علة الإنسانية الكبرى. نحن في أحسن أحوالنا، نفكر كثيراً ونكرم العقل كثيراً ولو مغرضاً. أما الروح فقلما نعبأ بها أو نعيرها اهتماما. هذه المدنية التي قامت. وهذه الاكتشافات والاختراعات إنها هي وليدة العقل ولا شك. ولكن آلات التدمير والخراب إنما هي أيضاً وليدة العقل، فنحن لا نترك مجالاً للروح. نتقدم في العقل وفي كل ما هو وليد العقل، إنما نعود القهقرى في قيم الحياة الروحية ومثلها العليا التي هي من انتاج الروح.

استطاع الطب أن يقضي على جراثيم الأمراض الفتاكة، وميكروبات الأوبئة الخطرة، ولكنه لم يستطع ان يقضي على جرثومة من جراثيم الطمع في القلب البشري. استطاع العلم ان يعبر بطائراته الجبال الشاهقة والأوقيانوسات الشاسعة، ولكنه لم يستطع حتى الآن أن يعبر جبال الأنانية وأوقيانوسات التكالب في النفس البشرية، استطاع العلم ان يقرّب المسافات البعيدة بين دول الأرض، ولكن لم يستطع ان يقرب مسافات البغض والفروقات الدينية والعنصرية بين الشعوب. استطاع العلم ان يحلق كالنسر في أعالي الجو ويغوص كالسمك إلى أعماق البحار ولكنه لم يستطع أن يحلق في سماء الحق والجمال، أو يهبط إلى بحر المحبة والسلام والطمأنينة.

العقل البشري وانتاجه الجهنمي جرثومة الحروب.

د. جهاد نعمان